حكايات من البيت القديم..



حصة العوضي

الخادمةُ المجهولةُ



حكايات للأطفال من التراث الخليجي

تَصحُو «أُمُّ سلطان» كلَّ يومٍ باكرًا جدًّا.. فعمَلُ البيتِ يبدأُ كلَّ نهارٍ معَ الفجرِ..

تَصحُو لِتَبدأَ في جَمْعِ البَيضِ منْ قفصِ الدجاجِ الكبيرِ.. وذلكَ بعدَ أنْ تؤدّي صلاةَ الفجرِ.. ثمَّ تحمِلُ (الطاسةَ) الكبيرةَ وتتَّجِهُ نحوَ معزاتِها الكريمةِ.. لِتقومَ بحَلْبِها.. وإعدادِ طعامِ الفطورِ لزوجِها «أبي سلطان»..

كانتْ «أُمُّ سلطان» في هذِه الأيّام مشغولةً جدًّا لكَثرةِ الضيوفِ الذينَ يزورونَها كلَّ يومٍ.. لِتَهنئتِها بزواجِ ابنِها الكبيرِ «سلطان».. ولِتَهنئةِ العروسِ الجديدةِ والسلامِ علَيها..

في ذلكَ اليومِ.. وكالعادةِ استيقظَتْ «أُمُّ سلطان» باكرًا.. لكنَّها كانَتْ تشعُرُ بالتعبِ والإجهادِ.. وكانَتْ تتمنّى لو أنَّها تستطيعُ الحصولَ على قِسْطٍ أكبرَ منَ النومِ..



لكنَّ الأُمنياتِ لا تَتحقَّقُ في غمضةِ عينٍ.. لذلكَ بدأَتْ أُمُّ سلطان تشجِّعُ نفسَها على النهوضِ من فِراشِها قائلةً:

«أصبَحْنا وأصبَحَ المُلْكُ للهِ الواحدِ القهّارِ.. الحمدُ لكَ يا ربِّ على ما أعطَيْتَ.. وما أنعَمْتَ..

هيَّا يا «أمَّ سلطان» لا تكوني كسولةً.. وانهَضي.. فأعمالُكِ الكثيرةُ تنتظرُكِ.. والضيوفُ أيضًا..

لا حَوْلَ ولا قوَّةَ إلاّ باللهِ.. توكَّلْتُ على اللهِ..».

استَجْمَعَتْ «أُمُّ سلطان» قِواها.. ونهضَتْ من فِراشِها.. واستَعدَّتْ لتأديةِ صلاةِ الفجرِ والبَدْءِ في أعمالِها النهاريّةِ.. مِنْ إعدادِ الشاي والقهوةِ وأطباقِ الفطورِ وبعضِ الحلوياتِ للضيفاتِ المُتوَقَّعِ وصولُهُنَّ للتهنئةِ معَ شروقِ الشمسِ مباشرةً..

بادئَ الأمرِ ذهبَتْ إلى قفصِ الدجاجِ.. لِتَجمَعَ البيضَ..



وحينَ دخلَتِ القفصَ الكبيرَ.. بـدأَتْ تُحدِّثُ دجاجاتِها بفرحٍ وبهجةٍ قائلةً:

«صبَّحَكُمُ اللهُ بالخيرِ أيُّها الصغارُ.. ماذا أعدَدْتُم لي اليومَ؟» لكِنَّ «أُمَّ سلطان» وقفَتْ متعجبةً وهي تبحَثُ تَحْتَ الدجاجاتِ كلِّها.. مندهشةً.. فهِيَ لم تجِدْ أيَّ بيضةٍ..

قالَتْ لنَفْسِها:

«أينَ البيضُ؟ عجبًا.. فلا وجودَ لأيِّ بيضةٍ..!! هلْ يُعقَلُ ألَّا تَضَعَ هذِه الدجاجاتُ كلُّها اليومَ أيَّ بيضٍ..؟ هِيهْ.... أمري للهِ.. لِنرَ المِعزاةَ إذًا..».

واتَّجَهَتْ نَحْوَ مِعزاتِها المحبوبةِ.. والتي تأخذُ مِن لبَنِها كلَّ صباحٍ لفُطورِهِم مِن دونِ مَشقَّةٍ.. وكانَتْ «أُمُّ سلطان» تُحِبُّ أن تتحدَّثَ إلى مِعزاتِها في أثناءِ الحلبِ.. كلَّ يومٍ..

جلسَتْ «أُمُّ سلطان» على المقعدِ الصغيرِ قُرْبَ



المِعزاة.. بعدَ أن وضعَتْ (طاستَها) تحتَ ضَرعِها.. وهي تقولُ: «هيًّا يا صغيرتي.. هيّا اسقينا مِن لبَنِكِ الطازَجِ.. كم يحبُّ أولادي لبَنَكِ.. ووالدُهُم «أبو سلطان» أيضًا..

بسمِ اللهِ..؟؟

وبدأَتِ الحَلْبَ.. ولكِنْ.. لم يَكُنْ هناكَ أيُّ قطرةِ حليبٍ..

تعجَّبَتْ أُمُّ سلطان وهي تتعوَّذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ.. وتقولُ:

«ما هذا..؟ أين حليبُكِ يا صغيرتي..؟ لقَد جفَّ الضَّرْعُ سريعًا..

ما الذي يحدُثُ اليومَ..؟ تُرى هلْ جاءَ أحَدٌ وسرقَ البيضَ والحليبَ..؟!

وبدأَتْ تحدِّثُ نفسَها من جديدٍ.. فماذا يحدُثُ اليومَ..؟

لا بَيْضٌ.. ولا حليبٌ.. قالَتْ:

«لا يُمكِنُ.. هذا لا يحدُثُ أبــدًا.. بيوتُنا آمنةٌ والحمدُللهِ.. ولا أحدَ هُنا يضُرُّ جارَهُ..

هناكَ شيءٌ غريبٌ يحدُثُ اليومَ.. ولستُ أعرفُ ما هو..



ولكِنْ لأَذهبْ إلى مطبخي قبْلَ عودةِ زوجي من المسجدِ..».

وخرجَتْ «أُمُّ سلطان» منَ الحظيرةِ.. وهي تفكِّرُ فيما يحدثُ حَوْلَها.. فهِيَ لا تعرفُ أينَ ذهبَ البيضُ.. وكيفَ جفَّ الحليبُ.. وراحتْ تنتظرُ زوجَها لِتَخبرَهُ بما حَدَثَ.. ثم قرَّرَتِ الذهابَ إلى المطبخِ لِتُعِدَّ القهوةَ والشايَ لزَوجِها وأبنائها وللضيفاتِ القادماتِ..

وحينَ اقتربَتْ من المطبخِ كانتْ تفوحُ روائحُ غريبةٌ.. رائحةُ البيضِ المَقلِي.. والقهوةِ.. والهيلِ.. وروائحُ أُخرى.. وما إن فتحَتِ البابَ.. حتَّى فوجِئَتْ بأمرٍ غريبٍ لم يحدُثْ لها مِن قبلُ.. فماذا وجدَتْ «أُمُّ سلطان» في مطبخِها؟..

كانتْ «أُمُّ سلطان» تتعوَّذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ مراتٍ ومراتٍ.. وكأنَّها قد رأَتْ عِفريتًا ما يحتلُّ



مطبَخها.. ولكنْ لم يكُنْ هناكَ أيُّ عِفريتٍ.. ولا أيُّ جِنِّيّ.. بل كانَ هناكَ شيءٌ أغرَبُ مِن ذلكَ كلِّهِ.. شيءٌ لا يحدُثُ إلاّ في الخيالِ.. قالتْ «أُمُّ سلطان»: «غريبٌ.. ماذا أرى..؟ القهوةُ والشايُ قُرْبَ النارِ..؟ وسفرةُ الفطورِ معدّةٌ وجاهزةٌ..؟ ماذا يحدُثُ..؟



من قامَ بإعدادِ ذلكَ كلِّه..؟»

ثُمَّ كشفَتِ الأوانِـيَ المصفوفةَ فوقَ الصينيةِ.. وبدأَتْ روائحُها تفوحُ وتنتشرُ في المكانِ..

كانَ هناكَ الكثيرُ مِنَ الطعامِ المُعَدِّ لضيوفٍ ولمناسبةٍ سعيدةٍ.. ولكِنْ مَن الذي أعدَّ ذلكَ كلَّه..؟ مَن قامَ



بعملِ «أُمِّ سلطان» اليومَ ومنَحَها إجازةً مِن أعمالِ الصباحِ المنهكةِ..؟ لا أحدَ يَدري..

أفاقَتْ مِن سرحانِها وتساؤلاتِها على صريرِ البابِ الخارجيّ وهوَ يفتحُ ويغلقُ.. ثم سمعتْ صوتَ «أبي سلطان» يقتربُ مِنها.. قائلًا:

«يا أُمَّ سلطان.. هَلِ الدارُ أمان..؟».



فردَّتْ عليْه:

«تفضَّلْ.. تفضَّلْ يا «أبـا سلطان».. أسعدَ اللهُ صباحَكَ.. كيفَ حالُكَ اليومَ..؟

كانَ «أبو سلطان» عائدًا من المسجِدِ.. حينَ شمَّ تلكَ الروائحَ تفوحُ من مطبخِ «أُمِّ سلطان».. فقالَ لها:

«وصباحَكِ أيضًا يا «أُمَّ سلطان».. ما هذِه الرائحةُ



الطيبةُ..؟ لقدْ شدَّتْني من بابِ المسجدِ..».

هُنا فكّرتْ «أُمُّ سلطان».. هل تُخبِرُهُ بالأمرِ الغريبِ.. أم تؤجِّلُهُ إلى وَقْتٍ آخَر.. ولم يكُنْ هناكَ الكثيرُ من الوقتِ للتفكيرِ..

فأجابَتْ زوجَها مرحِّبةً:

«تفضَّلْ يا «أبا سلطان».. تفضَّلْ في المقعدِ..



سوفَ أُحضِرُ لكَ الطعامَ حالًا.. كلُّ شيءٍ جاهزٌ والحمدُلله..».

وجلسَتْ «أُمُّ سلطان» لِتفطرَ معَ زوجِها.. وتصبُّ له الحليبَ الطازَجَ والقهوةَ.. ولِتُطْعِمَهُ مِنَ الصينيةِ التي وَجَدَتْها جاهزةً في المطبخِ وهيَ لا تعرفُ مَن.. وكيفَ ولماذا أُعِدَّتْ هذِه السُّفرةُ..



ومرَّ اليومُ بهدوءٍ شديدٍ.. معَ الضيفاتِ.. والزياراتِ التي لم تنقطعْ.. وأَوَى الجميعُ في المساءِ إلى النَّومِ.. وحتّى الصباحِ التالي.. حينَ استيقظَتْ «أُمُّ سلطان» كعادتِها وخرجَتْ إلى الحوشِ.. متَّجهةً إلى عشِّ الدجاجِ.. ولكِنْ.. لم يكُنْ هناكَ أيُّ بيضٍ.. تمامًا كالأمسِ..

خرجَتْ مِن عشِّ الدجاجِ واتَّجَهَتْ نحوَ الحظيرةِ لتحلبَ المعزاةَ.. ولكِنْ.. لا يوجدُ حليبٌ في ضَرْعِ المعزاةِ.. مثلَ الأمسِ تمامًا.. لهذا اتَّجَهَتْ نحوَ المطبخِ.. وما إنْ فتحَتِ البابَ.. حتَّى هلَّتْ علَيْها الروائحُ الطيبةُ.. ورأَتِ الشايَ والقهوةَ والحليبَ جميعَها قُرْبَ النارِ جاهزًا.. وكذلِكَ صينيةَ الفطورِ تمامًا.. كما كانت بالأمسِ..

وقفَتْ مكانَها حائرةً مفكِّرةً.. وهي تقولُ:

«يا إلهي.. تمامًا.. مثل الأمسِ بالضَّبطِ.. تُرى مَنِ



الذي يخدِمُني مُنْذُ الأمسِ..؟ آهٍ عرفتُ الآنَ.. لا بدَّ مِن أنّها العروسُ.. زوجةُ «سلطان».. تريدُ أن تُريحَني.. من دونِ أن تُخبرَني بِذلك..

جزاكِ اللهُ خيرًا يابنةَ الأجاويدِ.. وأسعَدَكِ معَ ولَدي إنْ شاءَ اللهُ طوالَ العُمرِ..؟

هُنا.. انشرَحَ صَدرُها.. وبدأَتْ تشعرُ بِالطمأنينةِ.. فزوجةُ ابنِها.. العروسُ الجديدةُ.. لا بدَّ مِن أنَّها قامَتْ بِكُلِّ ذلكَ لِتُريحَها مِن عِبْءِ العملِ وإعدادِ الطعامِ والقهوةِ للضيفاتِ.. فأسرَعَتْ تحمِلُ الفطورَ إلى غرفةِ المقعدِ.. حيثُ تجلِسُ الأُسرةُ معًا.. ووَضعَتْهُ هناكَ في انتظارِ عَودةِ زوجِها «أبي سلطان» من المسجدِ.. لِتُخبرَهُ كَم هِي محظوظةٌ بزَوجةِ ابنِها الخدومةِ التي تعرفُ الواجبَ وتحترمُه أيضًا..

نَعَمْ.. هكَذا فكَّرَتْ «أُمُّ سلطان».. وظَنَّتْ أنَّ

العروسَ الجديدةَ هيَ التي كانتْ تُعِدُّ لهُمُ الفطورَ مفاجأةً لها.. وقرَّرَتْ ذلكَ اليومَ أن تَشكُرَها.. وما إن رأَتْها حتّى استقبلَتْها بالبِشْرِ والفرحِ قائلةً لها: «شكرًا يا ابنَتي لكلِّ ما تفعلينَهُ لنا.. ولكِنْ أنتِ ما زلتِ عروسًا.. ولا يجوزُ أن تَخدُمي في البيتِ.. حتَّى الأسبوعِ القادمِ..».



استغرَبَتِ العروسُ وقالَتْ:
«لكنَّني لم أفعَلْ شيئًا يا «أمَّ سلطان»..».
قالَتْ لها «أُمُّ سلطان» بِوُدٍّ:
«لا تُحاولي أن تُقلِّلي مِن قيمةِ عملِكِ.. فأنا مسرورةٌ جدًّا.. و«أبو سلطان» أيضًا مُغرَمٌ بِكُلِّ تلكَ الأصنافِ التي تُعِدِّينَها كلَّ صباحٍ..».
قالَتِ العروسُ:
«حقيقةً عمَّتي.. أنا لم أعِدَّ شيئًا.. ولم أدخُلِ المطبخَ حتَّى الآن.. فلا أريدُ أن أُزعِجَكِ حتّى تأذني لي بذلِكَ..».
دُهِشَتْ «أُمُّ سلطان» وقالَتْ:
«هل تَعنينَ أنّكِ لم تُعِدّي الفطور.. ولم تَحلُبي المعزاةَ بالأمسِ واليوم..؟».
قالَتِ العروس:
«أنا جادَّةٌ عمَّتي.. فأنا أريدُ أن أفعلَ كُلَّ ذلكَ حقًّا..

ولكِنْ بعدَ أن تسمَحي لي أنتِ..».

قالَتْ «أُمُّ سلطان»:

«عجبًا.. إذا لم أكُنْ أنا.. ولم تكوني أنتِ.. فمن يفعلُ لنا ذلكَ..؟».

هُنا فكَّرَتْ «أُمُّ سلطان».. وقرَّرَتْ أن تكتشِفَ الحقيقةَ بنَفْسِها.. وذلكَ بأنْ تُراقِبَ المطبخَ في الليلةِ التاليةِ.. وفعلًا.. جلسَتْ خارجَ الغرفةِ.. تُراقبُ البيتَ.. ولكنْ في آخرِ لحظةٍ غلَبَها النومُ فنامَتْ وهي في مكانِها.. ولم تصحُ إلا على صوتِ



«أبي سلطان» وهو عائدٌ منَ المسجدِ.. وكالعادةِ وجَدَتْ كلَّ شيءٍ جاهزًا.. ولم تعرِفْ مَن أعَدَّ ذلكَ كلَّه.. فقرَّرَتِ السَّهرَ في الليلةِ التاليةِ..

وأيضًا غلَبَها النومُ.. لكِنَّها صحَتْ على صوتِ غناءٍ عذبٍ في المطبخِ..

فقامَتْ مِن فَوْرِها واتَّجهتْ نحوَ المطبخِ وسمِعَتْ صوتًا جميلًا يغني ويقولُ: (بالعامية).



«وباروح بيت أبوية.. وباحط لي اعشرة..
وبتراوي مرت أبويه.. أم ويه الوحرة..»
وتساءلَتْ «أُمُّ سلطان» عَن صاحبةِ هذا الصوتِ..
فهُوَ ليسَ غريبًا عنها.. وربَّما سمِعَتْهُ قبلَ اليومِ..
ولكنْ لِمَنْ..؟ وأينَ..؟
اقتَربَتْ «أُمُّ سلطان» من بابِ المطبخِ.. وسمِعَتْ
صوتَ أوانٍ وقدورٍ.. فما كانَ مِنْها إلَّا أن فتَحَتْ



بابَ المطبخِ بهدوءٍ لِتَرى أمامَها ابنةَ الجيرانِ.. التي ملأَها الرُّعبُ حينَ رأَتْ «أُمَّ سلطان» فقالَتْ معتذرةً: «آسفةٌ.. آسفةٌ «أُمَّ سلطان».. لم أقصِدْ إزعاجَكِ قطُّ».

ردَّتْ «أُمُّ سلطان» بدهشةٍ:

«نوير.. ما الذي جاء بكِ إلى هُنا..؟ وماذا تفعلينَ في مطبخي..؟».

ردَّتِ الفتاةُ:

«آسفةٌ سيِّدتي.. لكِنَّني أريدُ أن أردَّ لكِ جميلَكِ حينَ خلَّصتِني مِن عقابِ زوجةِ أبي..».

سألَتْها «أُمُّ سلطان» وهيَ عاجزةٌ عنِ الوقوفِ لِدَهشَتِها وفَرحَتِها معًا..

«نوير .. هل أنتِ...؟

ردَّتْ نوير.. وهي تُساعِدُ «أُمَّ سلطان» على الجلوسِ:

«نَعَمْ.. أنا.. أعرِفُ أنَّ لدَيكِ عروسًا وعملًا كثيرًا في

البيتِ.. وزوجةُ أبي لا تسمحُ لي بمساعدةِ أحَدٍ.. فقرَّرَتُ أنْ أعدَّ لكِ ولعروسِ «سلطان» وزوجِكِ الفطورَ.. قبْلَ أن تصحُوَ وتكتشِفَ خُروجي من البيتِ.. وأنا آسفةٌ إذا كنتُ قد أخَفْتُك..».



سألَتْها «أُمُّ سلطان» وقد استردَّتْ أنفاسَها:
«ولكِنْ يا نوير.. كيفَ.. كيفَ تدخلينَ البيتَ من دونِ أن نراكِ..؟

قالَتْ نوير:
«أنا آتي منَ السطحِ.. من بيتِنا إلى بيتِكُم.. سيدتي أرجو ألَّا تُخبري زوجةَ أبي.. ستعاقِبُني لو عَلِمَتْ بالأمرِ..».

قالَتْ لَها «أُمُّ سلطان»:
«سأعدُكِ ألَّا أُخبِرَها إن وعدْتِني ألَّا تُعيدي الكَرَّةَ مرةً أُخرى»..

قالَتْ نوير:
«ولكِنْ.. «أُمَّ سلطان».. أنا..»

قاطَعَتْها «أُمُّ سلطان» قائلةً:
«يكفي ما أنتِ تَتحمَّلينَهُ من أعباءِ البيتِ ومن زوجةِ أبيكِ.. لا أريدُ أن أرهِقَكِ أكثَر.. هل تَعدينَني..؟».

وبصعوبةٍ وافقَتِ الفتاةُ على طلَبِها..
ووَعَدَتْها ألَّا تعودَ مرةً أُخرى لإعدادِ الفطورِ إلّا بإذنِها..
وشكَرتْ «أُمُّ سلطان» الفتاةَ.. ومنَحَتْها ثوبًا جميلًا



هديةً لها على خدمتِها لها طَوالَ تلكَ الأيـامِ..
ودَعَتْ لها أن يرزُقَها اللهُ الزوجَ الصالحَ قريبًا..
وذلكَ كلُّه كانَ بفَضْلِ العملِ الطيبِ الذي قامَتْ بِه
«أُمُّ سلطان» منذُ مدةٍ منَ الزمنِ تُجاهَ هذِه الفتاةِ..

أجمل تحية من حصة العوضي

